والأسباب التي أوجبت التفضيل فقد أخبرتك فيما تقدم بما أحاط به علمي من نمت مذهبيهما وذكر مطاوبهما في سرقة معاني الناس ، وانتحالها وغلطهما في المعاني والألفاظ ، وإساءة من أساء منهما في الطباق والتجنيس والاستعارة ورداءة النظم واضطراب الوزن وغير ذلك مما أوضحته في مواضعه وبينته ، وما سيعود ذكره في الموازنة من هذه الأنواع على ما يقوده القول وتقتضيه الحجة ، وما ستراه من محاسنهما وبدائعهما وعجيب اختراعهما ، فإني أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضهما ومعانيهما في الأشعار التي أرتبها في الأبواب ، وأنبه على الجيد وأفضله على الردئ ، وأبين الردئ وأرذله ، وأذكر من علل الجميع ماينتهي إليه التخليص وتحيطبه العناية ، ويبقى ما لم يمكن إخراجه إلى البيان ولا إظهاره إلى الاحتجاج ، وهي علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة . وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة مَن سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبّل لتلك الطباع وامتزاج ، وإلا لا يتم ذلك ، وأكِلك بعد ذلك إلى اختبارك ، وما تقضي عليه فطنتك وتمييزك »

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

من التاريخ الإسلامي :

قضية سمرقند (*)

للأستاذ علي الطنطاوي

كانت ليلة ميّتة لا يتردد في صدرها نفس من نسيم ، ولا تبدو فيها حركة حياة ، عمياء لا تبصر فيها عين من نجم يسطع في السماء ، أو مصباح يزهر على الأرض ، وقد آوى كل حيّ في (سمرقند) إلى مضجعه ، ونامت المدينة تحت أثقال من الصمت والظلام ، ولم يبق متيقظاً فيها إلا هذا الرجل الذي خرج من داره ، يخوض لُجّة الليل ماراً إلى غايته ، ولا يقف ولا يلتفت حتى بلغ قصر الأمارة فألقى عليه نظرة ، لو كانت نظرة تحرق لأحرقه الشرر المتطاير منها ، ثم أوسع الخطو ، وأسرع كأنه يريد أن يجنب نفسه مرأى هذا القصر ، وأن يسابق الزمن إلى هدفه الذي يرمي إليه ...

وفارق المدينة واحتواه الغاب ، وطنّت في أذنيه أصوات هوامّه وحشراته ، وكان الغاب موحشاً غارقاً في ظلمتين ، ظلمته وظلمة الليل ... ولكن الرجل لم ينتبه إلى وحشته وظلامه ، وقد كان له من ضخامة المطلب الذي يسعى إليه ، وعظم الخطر الذي يقدم عليه ، شاغل عن التفكير في ثقل هذه الليلة ، وانفراده في الغاب ، والخوف من أن تنشقّ هذه الظلمة المتراكبة حوله عما يؤذي ويروع ... حتى إذا بلغ الصخرة التي تقوم عند باب المعبد وقف وأحجم ، وخالطته هيبة شديدة ، ووَقَرَ على صدره شيء لم يجد مثله في الغاب الموحش ، ولم يكن غلاماً تفزعه الأشباح ، ولا كان الجبان الرعديد ، ولكن ما وضموه في نفسه وهو صغير من أسرار المعبد وعجائبه ، جعله يشب ويكتهل ولا يزال أمامه مثل الطفل الصغير وكان فارس البلد غير مدافع ، وبطل المعارك المكفهرّة ، ولكن المعبد غير الميدان ، ولئن واجه في الميدان رجالا مثله ، ففي المعبد قوى لا يراها ، وخفايا لا تصنع معها شجاعته شيئاً ... ولم يدخله قط ، إنما يدخل المعبد هؤلاء النفر من الشيوخ الذين مارسوا من أنواع العبادة والرياضات ما جعلهم أهلا لدخوله ، ثم لا يخرجون منه أبداً ، ولا يجوز لهم أن يعودوا فيروا نور الشمس ولا زهر الروض ، وكان يشعر بأن لهؤلاء الكهنة مهابة في قلبه وعبة ، ويحس بالخوف منهم وهو الذي يواجه الأبطال الصناديد ، ويقدم على الموت الأكيد غير خائف ولا وَجِل . وطال وقوفه عند الصخرة وهو يتهيب أن يقرعها بيده على نحو ما أمروه أن يفعل إذا هو وصل ... وجعل يحدق في الظلام فرأى كأن شخصاً عظيم الهامة ، له لحية بيضاء عريضة قد نَبَع من الأرض ، ففزع وارتاع ، ولكنه سمع صوتاً إنسانياً يناديه باسمه ويدعوه إلى أن يتبعه ، فعلم أنه الحارس الموكل بباب المعبد ، فلحق به وقلبه يخفق تطلعاً إلى ما وراءه من خفايا وأسرار ، فاجتاز به سرداباً طويلا ملتوياً تضيئه مصابيح نحاسية منقوشة ، يخرج منها لهيب أزرق يتراقص فيلقي على الجدران

(*) النص التاريخي لهذه القصة في ستة أسطر من الصفحة (٤١١) من فتوح البلدان للبلاذري طبعة مصر ١٩٣٢) .

الصخرية ظلالا عجيبة ، وفى السرداب تماثيل (آلهة) ذات صور بشعة مرعبة ، يومض من عينيها ضوء أحمر فيكون لها منظر يخلع قلوب الجبابرة ... وفى السرداب شقوق يدخل منها الهواء فيصفر صفيراً مخيفاً كأنه صوت سرب من البوم ... ثم دخل به غرفاً منقورة فى الصخر حتى انتهى به إلى قاعة الكهنة الذين لا يراهم أحد لأنهم لا يخرجون من المعبد ، وقلّ أن يدخلوا أحداً عليهم ، والذين كانوا هم حكام البلد وملوكه وأصحاب الكلمة فيه ، لا يجرؤ على مخالفة أمرهم أحد إلا حقّت عليه لعنة (آلهة ...) المعبد ، ذات الوجه البشع المرعب ...

* * *

لم يستطع الرجل من دهشته أن يدير نظره فيما حوله ، أو أن يملأ عينيه من الكهنة ومن كان معهم ، وسمع كلاما ينصب فى أذنيه بصوت خافت رهيب كأنما هو يسمعه حلماً ... وفهم أن المتكلم يذكر ماضى سمرقند وسالف مجدها ، وكيف هبط عليها هؤلاء المسلمون هبوط البلاء ، فأزاحوا عرشها ، وحطموا جيشها ، وحكموا وملكوا أمرها ، ثم أفاض فى الكلام على الخطة التى اختطها لإفساد أخلاقهم ودينهم ، وإضعافهم وإلقاء الخلف بينهم ، وكانت خطة شيطانية ارتجف لسماعها ، ثم عاد المتكلم فقال :

— غير أنا رأينا أن نرجئ خطتنا ، ونرمى آخر سهم فى جعبتنا ، وذلك أنا سمعنا أن لهؤلاء القوم مَلِكاً عادلا يقيم فى دمشق ، فأزمعنا أن نرسل إليه رسولا يرفع إليه شكايتنا ، ويشرح له مظلمتنا ، ثم نرى ما هو فاعل ، وقد اخترناك لمعرفتك العربية وجراءة جنانك لتكون أنت الرسول ؛ فهل أنت راضٍ ؟ قال : نعم . قال : امض بتوفيق الآلهة ... !

* * *

وخرج وما تَسَمُّه من فرط الزهو الأرضُ ، وأحس من الخفة والنشاط أنه سيطير ، ورأى ظلامَ الليل أبيضَ مضيئاً ، ولقد اعتدّها نعمة كبرى أن دخل المعبد وكلم الكهنة ، وكان موضع ثقتهم ونجواهم ، وأن أولوه شرف القيام بأضخم مهمة عهدوا بها إلى أحد ، وشعر أن حرية قطر بسمرقند وشرفه فى يمينه ، وأنه هو المحامى عنه والمنافح دونه ، وكان لفرط شجاعته يتمنى لو كافوه حرب المسلمين وإخراجهم من بلده ، ولم يكن يعرف مبلغ قوتهم ، وجلال ملكهم ، وأن هذا القطر كله فى جنب دولتهم كالساقية التى جاءت تغالب البحر ... ولو مدّ البحر وأزبد وهاج لا تقلع الساقية من منبعها فشربها فضاعت فيه فلم يبق لها أثر ، فلما شد رحاله وسافر ومضى يقطع الليالى الطوال ، والأسابيع والشهور ، وهو لا يفتأ يمشى فى ظلال الراية الاسلامية المظفرة ، لم يلق عصا التسيار ولم يبلغ العاصمة ... من سمرقند إلى بخارى إلى بَلْخ إلى هرات إلى قزوين إلى الموصل إلى حلب إلى دمشق ... دنيا من الخصب والحضارة والمجد ، وبلاد كانت ممالك كثيرة ما مملكة منها إلا وهى أعظم وأضخم من سمرقند ... وما سمرقند فى جانب ملك كسرى وخاقان ؟ فأين ملك خاقان وكسرى ! لقد ابتلعته المدينة المتوارية بين الحرّتين وراء رمال الجزيرة ، تلك القرية التى هزّها محمد بيمينه ، فولدت الأبطال الذين انتشروا فى آفاق الأرض وملكوها ... وأنبتت رمالها جنات الشام والعراق وفارس وخراسان ... وهذه البلاد الخصبة المرعة التى ليس لها آخر ... وكان كلما تقدم ورأى جديداً من دنيا الاسلام تمتلىء نفسه فرقاً من لقاء الخليفة ...

وأفاق يوماً من ذهوله ، بعد ما صرم فى هذه الرحلة أشهراً ، على صوت الدليل ، وهو يهتف باسم (دمشق) .

هذه دمشق سرة الأرض ؛ هذه سدة الدنيا ، هنا التُّقى والعلى والمجد والغنى والجلال والجمال ... من هنا تخرج الكلمة التى تمضى مطاعة حتى تنتهى إلى بلده سمرقند ، وتمضى من هناك حتى تبلغ أرضاً أبعد وأنأى ، حتى تجوز أسبانيا ، هنا يقيم الرجل الذى ملك ما لم يملكه فى سالف الدهر قيصر ولا كسرى ولا الاسكندر ولا خاقان ... والذى لا يجد من جبال الصين إلى بحر الظلمات من يخالف عن أمره ، أو يردّ قوله ...

ولكن كيف الوصول إليه ؟ وأنّى لغريب منكر مثله بالدخول عليه ؟ وخالط قلبه اليأس ... فسأل عن خان ينزل فيه فأرشد إلى خان أمضى فيه ليلته ، فلما أصبح أخرج ثيابه فلبس أحسنها ، وخرج ليلقى الخليفة ... وأقبل على أول إنسان لقيه يريد أن يسأله عن (القصر) ، فاعترته هيبة شديدة ، وخاف من مواجهة الرجل الذى يحكم نصف الأرض ، والذى لا يبلغ ملك

شاهنشاه العظيم ولاية واحدة من ولاياته ، يحكمها أمير من أمرائه ... وذكر كيف كانت تتصدع الأفئدة خوفاً من لقاء كسرى ، وتقف الملوك على بابه ، وكيف كان يقتل على الظِّنَّة ، ويأمر بضرب عنق الرجل يقول كلمة لا تعجبه ، أو يأتيه في ساعة يكون فيها نَفِسَ النفس ضيق الصدر ، وتلمَّس عنقه وتخيَّله من الفزع مضروباً ، وتصور رأسه طائراً عن جسده ، فطارت معه حماسته وشجاعته ... وكره لقاء الخليفة ، وفكر في العودة إلى بلده سالماً قبل أن يحيق به مصاب لا ينفعه معه مجد يناله ، ولا وطن يحرره ، ولا كاهن يرضيه ... وغرق في مخاوفه وأفكاره ، وجعل يسير على غير هدى ، وكلما مرَّ على قصر من قصور دمشق ، ورأى بهاءه وعظمته ظنه قصر الخليفة ، فخفق قلبه واضطرب ... حتى رأى قصراً ما له في جلاله نظير ، له باب هائل ، عرضه مثل الشارع العظيم ، له قوس مشمخرة عالية ، ذات مقرنصات ونقوش ، قائمة على اسطوانتين من المرمر الصافي ، ورأى الناس يدخلون ويخرجون لا يسأل أحد أحداً ، ولا يمنعه حاجب ولا بواب ، فأيقن أنه قصر الخليفة ، وتشجع وشدَّ من عزمه ودخل يقدم رجلا ويؤخر أخرى ... فلما لم ير أحداً قد منعه سكنت نفسه ، ونظر فإذا هو في صحن واسع ، إذا كنت في طرفه لا تستطيع أن تتبيَّن من هو في الطرف الآخر ، قد فرشت أرضه بناصع الرخام فهو يلمع كالمرايا ، والناس يجلسون عليه ، وحوله جدران عالية ، ما رأى قط بناء أرفع منها ، وهي مزخرفة بأعجب الزخارف والنقوش ، وفي وسط الصحن بركة واسعة يتفجر منها الماء ، فيضربه شعاع الشمس فيكون له منظر عجيب ... ونفذ من الصحن إلى قاعة لا تقل عنه سعة ، ولا يدانيها بهاء وجمالا ، قد قام سقفها على أساطين الرخام ، تحمل أقواساً فوقها أعمدة أصغر منها ، فوقها أحناء وطاقات معقودة ، تتدلى من السقف سلاسل الذهب والفضة تحمل المصابيح والثريات ، وجعل يمشي خلال الناس ذاهلا ، لا يدري ماذا يصنع فاصطدم برجل كان يقوم ويقعد ويذكر اسم الله ... وتلفت الرجل إلى اليمين وإلى الشمال ، ونظر إليه فرآه غريباً ، فسأله عن حاله ، فسبق لسانه إلى الحقيقة فأخبره أنه جاء من بلده يريد لقاء الخليفة ، ثم تنبه وقدر أن الرجل سيرتاع لذكر الخليفة بلا تعظيم ولا تبجيل ، وأنه سيدفعه إلى الشرطي فيستاقه إلى السجن ... فرأى الرجل ساكنا هادئا كأنه لم يسمع نكراً ، وسمعه يقول له :

— أتحب أن أدلك على داره ؟

— قال : أوليست هذه داره ؟

— قال الرجل مبتسما : لا هذا بيت الله ، هذا المسجد ، أصليت ؟

صلى ؟ وكيف يصلي وهو على دين سمرقند ، ذلك الدين الذي لا يعرف منه إلا هذا المعبد المملوء بالأسرار ، وتلك الآلهة المخيفة ذات الوجه البشع المرعب ... وجعل يفكر : أين هذا المعبد من معبده المختبىء في بطن الصخر ، وأين هذا النور وهذا الجمال ، من تلك الظلمة وذلك القبح ؟ وشكَّ لأول مرة في عمره في دينه الذي نشأ عليه !

وأعاد الرجل سؤاله . فقال له : لا لم أصلِّ ، ولا أعرف ما الصلاة ...

— قال : وما دينك ؟

— قال : أنا على دين كهنة سمرقند ؟

— قال : وما دينهم ؟

— قال : لا أدري !

— قال : من ربك ؟

— قال : آلهة المعبد المرعبة ...

— قال الرجل : وهل تعطيك إن سألتها ؟ وهل تشفيك إن مرضت ؟

— قال لا أدري ...

ورآه الرجل ضالا جاهلا ، فألقى في هذا القلب الخالي أصول الدين الحق بوضوحها واختصارها وجمالها ، فلم تكن إلا ساعة حتى صار رسول كهنة سمرقند مؤمنا بالله ورسوله محمد الذي جعل الله به العرب سادة الدنيا ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ...

ثم قال الرجل قم الآن أدلك على دار الخليفة ، وإن كانت هذه هي الساعة التي يعالج شأنه فيها وشأن عياله ، وينفرد بنفسه .

وتبعه وهو يفكر في جمال هذا الدين وسموه ، وقد زالت الغشاوة عن عينيه فأدرك الآن سرَّ هذه الفتوح وهذه القوة التي لم يقم لها شيء . أين هذه الديانة السافرة الواضحة التي تجعل كل